الملكة اللسانية بين ابن خلدون وتشومسكي

أ.أسماء بن منصور

جامعة باتنة

الملخص: يعالج هذا المقال قضية لسانية شغلت العلماء قديما وحديثا، وهي قضية " **المَلَكَة اللسانية** " أو " اللغوية " كما يطيب لتشومسكي أن يسميها. وهي قضية تتصل بعلم اللغة بالدرجة الأولى، بل إن جُلَّ مباحث علم اللغة منذ الهنود واليونان والرومان وحتى العرب قد جاءت تتلمس السبيل بغية فهم ماهية هذه القضية، سواء في دراساتهم النحوية أو الصرفية أو الصوتية. وعندما نعود لتراثنا العريق نجد علاّمة غزير المعارف كثير الاطلاع كابن خلدون قد تناولها بشكل يلفت الانتباه إلى براعة فهم الرجل، فهو قد سبق أبرز عالم لغوي في العصر الحديث، الأمريكي نوام تشومسكي Noam Chomsky في معالجتها، وفي تفسير كيفية تحصيلها ولذا انكب هذا المقال على تتبع مفهوم الملكة اللسانية (اللغوية) عند ابن خلدون و على سبل ترّسخها ثم انتقل لسبر مفهومها عند تشومسكي.

الكلمات المفاتيح: الملكة اللسانية، الترّسخ، الطبع، جيني وراثي، الاكتساب، الحالة الأولية.

Abstract: This Article trys to adress a linguitic issue which had operated the ancient and recently scientists. Indeed, the issue of the Language Faclty was related to the linguistic investigations since the Indians, Greece, the Romans and even the Arabs both in their grammatical or morphological, or even in their acoustic studies in order to understand the nature of the human language.

And when we return to our heritage, we find the great scientist Ibn Khaldun had dealt with this issue in a way that makes us be surprised. He had already forerun the prominent linguist in the modern era, the American Noam Chomsky by his smart views.

Keywords: the language faclty, acquistion, genetical, the first case, temper.

كثيرا ما يردد تشومسكي في كتاباته في مجال علم اللغة - ذلك أن للرجل كتابات في القضايا السياسية أيضا- مصطلح "**الملكة اللغوية** "، ويحدد لها معنى لسانيا خاصا، غير أننا نجده عند ابن خلدون تحت اسم " **الملكة اللسانية** "، فنتعثر به بين الفينة والأخرى في " **المقدمة** " ليعبر عن معانٍ لا تبتعد كثيرا عن المعاني المتعلقة بموضوع الملكة اللغوية عند تشومسكي. وهنا وجب علينا أن نطرح جملة من التساؤلات: ما مفهوم الملكة اللسانية لغة؟ ما مفهومها عند ابن خلدون؟ وما السبيل إلى تحصيلها داخل الذهن البشري؟ وكيف حددها تشومسكي؟

بداية لابد لنا أن نقف على مفهوم الملكة اللسانية لغة حتى يتسنى لنا فهم ماهيتها، ثم يتعين علينا أن نخوض في معانيها عند كل من ابن خلدون وتشومسكي.

-**المَلكة**، لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة (مَلَك)، من المُلك و: "المَلك: الليث: المَلِكُ هو الله، تعالى وتقدّس، ملَكُ الملوك وهو مالك يوم الدين وهو مَليكُ الخلق أي ربهم ومالكهم"[(1)]

وجاء في الحديث: "لا يدخل الجنة سيء المَلَكة، متحرك، أي الذي يسئ صُحبة المماليك. ويقال: فلان حَسنُ المَلَكة إذا كان حسن الصُنع إلى مماليكه."[(2)]

و "تمالك عن الشيء: ملكَ نفسه. وفي الحديث: املكْ عليك لسانك أي لا تُجْرِه إلا بما يكون لك لا عليك." [(3)]

وقد وردت مادة (مَلَك) في الصحاح [(4)] بالمعاني ذاتها التي جاءت في لسان العرب،

كما ورد في قاموس المعاني أن المَلكة: "(اسم).الجمع: مَلَكات

---

(1) ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد العاشر، 1992، ص 491

(2) المرجع نفسه، ص 493

(3) المرجع نفسه، ص 495

(4) ينظر: الجوهري (أبو نصر إسماعيل) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة 4، 1990 م، المجلد 4، ص: 1609 إلى 1611.

المَلَكَةُ: صفةٌ راسخةٌ في النفس أو استعدادٌ عقليٌّ خاصٌّ لتناول أَعمالٍ معيَّنة بحذقٍ ومهارة" [1]

ومن هنا نلاحظ أن المعاجم اللغوية القديمة لم تشر أثناء معالجتها لمادة (مَلَك) إلى قدرات ذهنية أو استعداد عقلي للقيام بعمل معين، بل اقتصرت معانيها على المُلك والتملك والمملكة والمليك والممالك والمملوك.

_ الملكة اللسانية عند ابن خلدون:

عندما نتطرق لهذه المصطلح عند ابن خلدون نجده يُراد به معانٍ عميقة للغاية، قريبة من المعنى الذي ورد في قاموس المعاني. أي أنها بمثابة قدرات ذهنية دفينة يتمايز بها الإنسان وحده، ذلك أنّ الإنسان هو الكائن الفريد الذي وُهب عقلا.

يُعرّف ابن خلدون "المَلَكات" بصفة عامة بكونها: "صفات للنفس وألوان فلا تزدحم دفعة. ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعدادا لحصولها. فإذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة، فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف. وهذا بيّن يشهد له الوجود".[2]

وهو هنا يقصد بالملكة معنى قريبا من " الكفاءة " التي يتحصل عليها الإنسان في أي مجال معين، حيث يرى أن من حصلتْ له ملكة في صناعة ما صعُبَ عليه تحصيل ملكة أخرى في مجال آخر، إذ يقول من: "حصلت له ملكة في صناعة فقلَّ أن يجيد بعدها ملكة في أخرى ومثل ذلك الخياط، إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت في نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة أو البناء، إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها"[1]

وعندما يتحدث عن " **المَلَكَة اللسانية** " فإنه يميزها عن النحو وصناعة العربية، حيث يقول في فصل " **في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم** ": "والسبب في ذلك: أنّ صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. فهو علم بكيفية لا نفس كيفية، فليست نفس المَلكة، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما، ولا يحكمها عملا. مثل أن يقول بصير بالخياطة غير محكم لملكتها في التعبير عن بعض أنواعها: الخياطة هي أن يدخل الخيط في خرت الإبرة، ثم يغرزها في لفقي الثوب مجتمعين، ويخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا، ثم يردها إلى حيث ابتدأت، ويخرجها قدام منفذها الأول. بمطرح ما بين الثقبين الأولين، ثم يتمادى على ذلك إلى آخر العمل، ويعطي صورة الحبك والتنبيت والتفتيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالها، وهو إذا طُولبَ أن يعمل ذلك بيده لم يحكم منه شيئا... و**هكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة نفسها. فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل، وليس هو نفس العمل**"[2]. معنى هذا الحديث الملكة اللسانية هي ليست معرفة بقواعد النحو وقوانينه، و لا هي إتقان لقواعد العربية، إنما هي القدرة على استعمال تلك القوانين استعمالا لغويا سليما دون أخطاء، وهذا ما يؤكده قوله: " **إنما هو علم بكيفية العمل، وليس هو نفس العمل**".

"فالملكة اللسانية حقيقة لغوية غير صناعة العربية بل أكثر من ذلك، ليست صناعة العربية واجبة لتوفر الملكة اللسانية. إنما الملكة اللسانية تستقيم بصورة مستقلة عن صناعة العربية. ومع ذلك لا يغفل ابن خلدون عن الإشارة إلى العلاقة القائمة بين الملكة اللسانية وبين صناعة العربية"[1]

صناعة العربية هي صناعة النحو، وهي حرفة النُحاة وجمهرة من العلماء يُطلق عليهم قديما بصناع العربية، ذلك أن النحو كان يُسمى بـ: علم العربية ، والنحو هو: "انتحاء سَمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب، وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة

---

[1] قاموس المعاني، (مادة مَلَكَة، من: http://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/، تاريخ السحب: 7-1- 2017)

[2] ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة، تح: عبد الله محمد الدرويش، ط1، دار يعرب، 2004، ج 2، دمشق، ص 100 .

[1] المرجع السابق، ص 100.

[2] المرجع نفسه، ص385.

[1] ميشال زكريا، الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون (دارسة ألسنية)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1986، بيروت. ص 23

فينطق بها وإن لم يكن منهم وإن شذ بعضهم عنها ردّ به إليها وهو... انتحاء هذا القبيل من العلم، وغايته الاستعانة به لفهم كلام الله ورسوله وفائدته الاحتراز عن الخطأ في الكلام أو التمييز بين صواب الكلم وخطئه"[2]

لكن متكلم لغة معينة (العربية أو الإنجليزية أو أية لغة أخرى) "لا يمكنه أن يتكلم اللغة التي هي تنظيم من الرموز قائم على قواعد وتركيب ودلالات وأصوات لغوية ما لم يكن مُلمًّا بهذه القواعد. ولا يعني ذلك أنه ملم بصورة مباشرة بهذه القواعد. فهذه القواعد قد اكتسبها خلال نموه اللغوي الطبيعي وفي مراحل اكتسابه اللغة. فالباحث الألسني يحاول استقراء القواعد اللغوية التي تتيح لمتكلم اللغة إنتاج جمل لغته والتي هي قائمة، بصورة ضمنية"[3]

إنه لمثير للدهشة حقا أن نجد هذا الفهم الحاذق عند ابن خلدون في تلك الأزمنة الغابرة، ذلك أنّ الرجل "في تصوره "الملكة اللسانية "، قد سبق – بحق – فهم اللغويين المحدثين لها من حيث اعتمادها على الجملة لا المفردات ، ومن حيث تدرجها من الإفهام إلى الصحة إلى البلاغة، ومن حيث حصول الملكة من العرف والعادة والمعايشة المستمرة للنطق في بيئة الفرد اللغوية."[4] إن تمييز ابن خلدون الفذ بين المعرفة بقوانين اللغة وبين الملكة اللسانية يقترب من تمييز تشومسكي القديم بين الكفاية اللغوية والأداء الكلامي، "فالكفاية اللغوية من هذا المنظار، حقيقة عقلية تقود عملية الأداء الكلامي. هي المعرفة الضمنية بالقواعد التي تنتج الجمل؛ في حين أن الأداء الكلامي هو الاستعمال الآني لهذه المعرفة الضمنية بالقواعد، في عملية التكلم. فالأداء الكلامي يتم عبر اعتماد قواعد الكفاية اللغوية. ولقد اقترب ابن خلدون، في نظرته إلى الملكة اللسانية، من مفهوم الكفاية اللغوية. فالملكة اللسانية، في نظره، هي، في نهاية المطاف، المقدرة على صناعة العربية. إذ يكفي اللجوء إلى قوانينها لكي يصوغ العربي الكلام العربي الصحيح. كما أن الكفاية اللغوية، في النظرية الألسنية، هي المقدرة على تكلم اللغة وكتابتها. والجدير بالذكر أنّ ابن خلدون يركز على صناعة العربية أو كتابتها في حين أنّ النظرية التوليدية تركز، بالذات، على الأداء الكلامي بصورة عامة."[1]

– **تحصيل الملكة اللسانية:** يتم تحصيل هذه الملكة - حسب ابن خلدون - عن طريق السماع، حيث أقرّ في فصل: "**في أنّ اللغة ملكة صناعية**"، قائلا: " اعلم: أنّ اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة، أو نقصانها. وليس ذلك بالنّظر إلى المفردات، وإنّما هو بالنّظر إلى التّراكيب، فإذا حصلت الملكة التّامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التّأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلّم حينئذ الغاية من إفادة مقصودة للسامع، وهذا هو معنى البلاغة، والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأنّ الفعل يقع أوّلا وتعود منه للذات صفة، ثمّ تتكرر فتكون حالا، ومعنى الحال أنّها صفة غير راسخة، ثمّ يزيد التّكرار فتكون ملكة أي: صفة راسخة"[2] يشير هنا ابن خلدون إلى الأهمّية القصوى لاستمرار التّعرّض للبيئة اللغوية لتحصيل اللغة في الأذهان، وبتكرار هذا التعرض تنتقل **الملكة اللسانية** من حالة مؤقتة عارضة إلى حالة راسخة.

ومن هنا يمكن لنا تسجيل عدة نقاط بالغة الأهمية في تحصيل الملكة اللغوية، وهي:"تأكيد ابن خلدون على التكرار وجعله للتعلم مستويات، ثم عدم استثنائه للتعلم اللغوي منها يحيل من جديد على فهمه الواعي بحقيقة أن العبرة القصوى في تعلم لغة من اللغات لا يتوقف عند جهازها المفرداتي على أهميته، بل إن التمكن قد يؤكد بدرجة أكبر على جهازها الركيبي الذي حسب ما تقدم هو من أوجه التعبير باللغة عن المقاصد"[1]

---

[2] ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج1، ص43.

[3] ميشال زكريا، الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون (دراسة ألسنية)، ص 25- 26.

[4] محمد عيد، الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون، عالم الكتب، 1979، القاهرة، ص 27

[1] ميشال زكريا، الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون، ص 24.

[2] ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص 378

[1] مسعودة خلاف شكور، إسهامات ابن خلدون وآراؤه النظرية في تعليمية اللغة، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، ب / قسم الآداب والفلسفة. العدد 10- جوان، 2003. ص 21.

ويواصل ابن خلدون تبيانه كيف تمت مَلَكة اللسان العربي للعرب قائلا: "فالمتكلّم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودةً فيهم، يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطبتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها، فيلقنها أوّلا، ثمّ يسمع التّراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثمّ لا يزال سماعهم لذلك يتجدّد في كلّ لحظة ومن كلّ متكلّم، واستعماله يتكرّر إلى أن يصير ذلك ملكةً وصفةً راسخة، ويكون كأحدهم. هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها العجم والأطفال وهذا هو معنى ما تقوله العامة من أنّ اللغة للعرب بالطّبع، أي: بالملكة الأولى التي أُخذت عنهم ولم يأخذوها عن غيرهم."[2] إذن ترسيخ الملكة اللسانية - حسب رأيه - لا يتمّ إلا من خلال التّعرّض المستمر للنّماذج اللغوية التي يوفّرها المجتمع للأطفال. وكلّما تكرّر هذا التّعرض كلّما ترسخت هذه الملكة إلى أن تصبح لغة معينة كالعربية أو الفرنسية أو الإنجليزية. وهو رأي لا يخالفه فيه فخر الدّين الرّازي كثيرا، حيث يقول ليبين كيفية اكتساب اللسان العربي: "الطّريق إلى معرفة لغة العرب ونحوهم وتصريفهم إما العقل وإمّا النّقل أو ما يتركّب منهما. أمّا العقل فلا مجال له في هذه الأشياء لما بيّنا أنّها أمور وضعية، والأمور الوضعية لا يستقل العقل بإدراكها. وأمّا النّقل فهو إمّا توتر أو آحاد والأوّل يفيد العلم، والثّاني يفيد الظّنّ. وأمّا ما يتركب من العقل والنّقل فهو كما عرفنا بالنّقل أنّهم جوزوا الاستثناء لإخراج ما لولاه لدخل تحت اللفظ. فحينئذ نعلم بالعقل بواسطة هاتين المقدمتين النّقليتين أنّ صيغة الجمع تفيد الاستغراق"[1] لقد أولى ابن خلدون اهتماما بالغا بعنصر السّماع في أخذ الملكة اللغوية وترّسخها، وهذه التفاتة عظيمة منه، فلا يمكن أخذ لغة من المحيط إلا عن طريق السّماع، ومن ثمّ يتّضح لنا أنّ الرجل كان سمة بارزة في عصره الذي عُرف بالتقهقر والجمود والركود (عصر الضعف والانحطاط)، فهو علامة ثاقب الفهم غزير العلم واسع الإدراك، لذلك ليس غريبا على ابن خلدون أن ينظر إلى جميع اللغات الإنسانية على أنّها ملكات شبيهة بالصّناعة، أي أنّ اللغة يمكن تعلّمها كما يمكن تعلّم حرفة أو صنعة ما، ثمّ تتحول إلى ملكة والملكة هي مهارة راسخة تأتي عن طريق التّعلّم المستمر حتى صارت طبعا في الإنسان وهذا ما يوحيه قوله السابق: "...**و الملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أوّلا وتعود منه للذات صفة، ثمّ تتكرر لتكون حالا، ومعنى الحال أنّها صفة غير راسخة، ثمّ يزيد التّكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة** ."إنّ العرب قد رسّخوا ملكة لغتهم عن طريق السماع، وذلك بتعرضهم المستمر لبيئة لغوية عربية فصيحة، فلم يكونوا بحاجة ليتعلموها على يد المشايخ وهذا ما يعرف بـ "**الاكتساب**"، أي حصول اللغة في الذّهن دون وعي، "فالسماع سبيل الملكات اللسانية، فما اللغة إلا وليدة المحاكاة وما يصل إلى السمع"[2]. وهنا يظهر الفرق بين الملكة والطّبع، ويتمثّل هذا الفرق "بحديث العرب بالفصحى، وهو أنّ كلامهم هذا ليس طبعا جاهزا هكذا دون تعلّم، وإنّما هو ملكة تكونت وتمكنت وترسخت فيهم فأصبحت لا شعورية"[3] وفي ذلك يقول ابن خلدون: "ولذلك يظنّ كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أنّ الصواب للعرب في لغتهم إعرابا وبلاغة أمر طبيعي، ويقول كانت العرب تنطق بالطبع، وليس كذلك، وإنّما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكّنت ورسخت فظهرت في بادئ الرّأي أنّها جبّلة وطبع"[1]

اللغة العربية ليستْ طبعا وحكرا على العربيّ وحده، والإنجليزية ليستْ طبعا في الإنجليزي تميزه عن غيره من الأجناس البشرية والفرنسية ليست طبيعة جينية في الفرنسي دون سواه، إنّما هي - (اللغات) - ملكات تُكتسب من البيئة اللغوية، إذ يصّح لغير العربيّ أن يتقن العربية ولغير الإنجليزي أن يتقن الإنجليزية ولغير الفرنسي أن يتقن الفرنسية وهكذا.

---

[2] ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص 378

[1] الرازي (فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين)، المحصول في علم أصول الفقه، تح: طه جابر فياض العلواني، مطبوعات الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، ج 2، 1400ه، السعودية، ص 276

[2] محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف، ط2، القاهرة، ص 15

[3] باسم يونس البديرات، الفكر اللغوي عند ابن خلدون في ضوء علم اللغة المعاصرة، إشراف الأستاذ الدكتور: عبد القادر مرعي خليل، رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا، استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في الدراسات اللغوية، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، 2007، الأردن، ص 44

[1] ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص 387

فالعرب إذن أخذوا فصاحتهم من المحيط، ونطقوا على السليقة دون معرفة بقوانين نحوهم لأنهم اكتسبوا لغتهم عن طريق السماع والتعرض المستمر للبيئة العربية السليمة. إلا أنه بمجيء الإسلام ونزول القرآن بلغة قريش وبناء دولة إسلامية فسيحة البقاع، أدّى دخلتْ الأجناس غير العربية إلى الدين الجديد، مما أدى بهذه الأجناس الأعجمية إلى الاختلاط بالعرب الأمر الذي رمى الملكة اللسانية العربية بفساد جَلَل، وأصاب اللسانَ المُضري خللٌ واضطرابٌ، فاحتاج النّاس إلى طريقة أخرى لحصول العربية في الذّهن فكان التّعليم.

يقول ابن خلدون: "ثمّ إنّه لمّا فسدت هذه الملكة لمضر بمخاطبتهم الأعاجم. وسبب فسادها: أنّ الناشئ من الجيل، صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب من غيرهم، ويسمع كيفيات العرب أيضا، فاختلط عليه الأمر وأخذ من هذه وهذه، واستحدث مَلَكة، وكانت ناقصة عن الأولى، وهذا معنى فساد اللسان العربي" [2]

يميز ابن خلدون بين نوعين مختلفين من طرق أخذ اللغة واكتساب "الملكة اللسانية"، الأول يتم من خلال الترعرع في بيئة لغوية والتعرض لهذه اللغة عن طريق السماع، أمّا النوع الثاني فيكون عبر الحفظ والمران.[1]

ولذلك على من يبتغي ملكة اللسان المضري ويروم تحصيلها أن يسعى لحفظ كلام العرب الفصحاء، حيث يقول في ذلك: "ووجه التّعليم لمن يبتغي هذه الملكة (اللسان المضري) ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث، وكلام السّلف، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولدين أيضا في سائر فنونهم، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم " [2] كثرة الحفظ هي إذن مسألة ضرورية لتعلم اللغة ورسوخها في الذّهن حيث يؤكد مرة أخرى على أهمية التعليم في رسوخ الملكة قائلا: "أنّ الملكة إمّا تحصل بالتّعليم كما قلناه"[3]. ويقول أيضا : "وتعلم مما قررناه في هذا الباب أنّ حصول ملكة اللسان العربي إنّما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب، حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه، وينزل بذلك منزلة من نشأ معهم، وخالط عباراتهم في كلامهم، حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم."[4] لكن هذا لا يعني أنّ الحفظ وحده يكفي لرسوخ اللغة، بل يجب أن يقرن الحفظ بالفهم، فالفهم ما يتيح للمتعلّم كيفية استعمال ما تمّ حفظه، وهذا ما قصده ابن خلدون بقوله:". ثمّ يتصرّف بعد ذلك في التعبير عمّا في ضميره على حسب عباراتهم، وتأليف كلماتهم، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظها، فتحصل له هذه الملكة بالحفظ والاستعمال، ويزداد بكثرتها رسوخا وقوة، ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع والتفهم لمنازع العرب وأساليبهم في التراكيب ومراعاة التّطبيق بينها وبين قتضيات الأحوال" [5]

"واضح أن تعلم اللغة، في يقين ابن خلدون، يتم من خلال توفير مادة كلامية حيّة ووضعها في متناول حفظ المتعلم بحيث يتفاعل مع اللغة وهي تعمل وتحمل النتاج الثقافي الأدبي الفصيح، فيكتسب اللغة على نحو شبيه بالطفل الذي يترعرع في مجتمعه حيث يكتسب، بصورة طبيعية، لغته "[1]

ومن ثّم، يمكن لنا استقراء نظرية خلدونية حول اكتساب الملكة اللسانية، تقوم على طريقين، الأول يتم تلقائيا عن طريق السماع والتعرض للبيئة اللغوية التي يعيش فيها الطفل، أمّا الثانية فتتم عن طريق حفظ التراث العربي من قرآن وحديث وشعر والمران عليه باستمرار.

---

[2] المرجع نفسه، ج2، ص 378

[1] ينظر: ميشال زكريا، الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون (دارسة ألسنية)، ص 64

[2] ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص 386

[3] المرجع نفسه، ص 383

[4] المرجع نفسه، ص 386

[5] المرجع نفسه، ص 384

[1] ميشال زكريا، الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون، ص 69

- **الملكة اللغوية عند تشومكسي:** يرى تسومسكي أن الملكة اللغوية: << تتصف بأنها مكون فريد من مكونات الملكات الذهنية العليا (وربما يكون لعناصرها، بوصفها نظاما، أنواع كثيرة من الوظائف)، أي أنها " خصيصة مقصورة على النوع" ومشتركة بين بني البشر إلى حد بعيد، مع بعض التنوعات العامة لها " [1]

إنها هبة بيولوجية فطرية تشتمل على قواعد عالمية مشتركة بين جميع البشر , يُسميها تشومسكي بـ " النحو الكلي Grammar Universal"، وهذا النحو عبارة عن" نظام من القيود مستقى من الموهبة البيولوجية الإنسانية التي تحدد هوية اللغات المبينة داخليا التي يمكن الوصول إليها إنسانيا تحت الظروف العادية" [2]

"يبدو أن الملكة اللغوية البشرية " خصيصة مقصورة على النوع" حقيقة، ولا يختلف فيها البشر إلا اختلافا ضئيلا، وليس لها نظير مهم عند سواهم. وربما كان أقرب النظائر لها ما نجده عند الحشرات التي يفصلها عن البشر تاريخ تطوري يمتد لبليون سنة، وليس من سبب جوهري اليوم للاعتراض على وجهة النظر الديكارتية التي ترى أن القدرة على استخدام الإشارات اللغوية للتعبير عن الأفكار التي تُكوّن بصورة حرة ما يرسم " الفارق الحقيقي بين الإنسان والحيوان"... وتدخل الملكة...، زيادة على ذلك، بشكل جوهري في مظاهر الحياة كلها، وفي الفكر والتفاعل البشريين. وهي مسؤولة بشكل كبير عن أن للبشر وحدهم في العالم الأحيائي تاريخا وتطورا ثقافيا وتنوعا لا حدود لتعقيده وغناه." [3]

يقدم تشومسكي أدلة على وجود هذه المَلَكة عند الإنسان على أن المخلوقات الأخرى كالطيور مثلا أو القردة أو حتى الصخور حتى وإن تعرضت لنفس الظروف (التجربة اللغوية المقدمة) لا يمكن لها البتة تحصيل اللغة ولا يمكن لها أيضا أن تكتسب ما يسميه بـ " المعرفة اللغوية لأنها لا تمتلك الملكة اللغوية.

أمّا المعرفة اللغوية فهي خاصية بشرية تُكتسب، والذهن لا يمتلئ بها امتلاء الإناء من الخارج، فنموها أشبه بنمو الفاكهة مهما ساهمتْ العوامل الخارجية في نضجها فإن جودتها مرده إلى القوة الداخلية للشجرة وميزتها، وتطبيق هذه الفكرة الأفلاطونية على اللغة يومئ إلى معرفة لغة خاصة، لغة تنمو وتنضج على مستوى سلسلة من الأحداث تحددها إرشادات جينية بفعل التأثيرات المختلفة للعوامل البيئية [1]

وتصبح ملكة اللغة Language Faculty "ما يُفهم على أنه وحدة من وحدات العقل الإنساني. وطبيعة هذه الملكة هي مادة بحث النظرية العامة للبنية اللغوية التي تهدف إلى اكتشاف إطار المبادئ والعناصر المشتركة بين ما يمكن تحققه من اللغات الإنسانية. وغالبا ما تسمى هذه النظرية اليوم "النحو الكلي" (Universal Grammar (UG... كما يمكن للمرء أن ينظر إلى هذه الملكة على أنها " أداة اكتساب اللغة " A Language Acquistion Device أي مكون فطري من مكونات العقل الإنساني يؤدي إلى إيجاد لغة خاصة عبر التفاعل مع التجارب الحاضرة، فهي أداة تحول التجربة إلى نظام مكتسب من المعرفة أي إلى معرفة لغة أو أخرى" [2]

الملكة بهذا المعنى العميق عند تشومسكي هي المسؤولة عن اكتساب اللغة ولولاها لا يمكن للطفل أن يتقن أية لغة، فهي إذن مُكوّن جِيني وراثي يولد مع الإنسان ويميز النوع الإنساني وحسب، وظيفته اكتساب اللغة.

غير أن هذه الملكة ليست وعاء فارغا ولا هي صفيحة بيضاء، بل هي بمثابة "النظام الثابت غير المتنوع الذي نستطيع حرفيا أن نشتق منه اللغات الإنسانية المختلفة الممكنة، ويشمل ذلك اللغات الموجودة فعلا وكثيرا وغيرها."[3].

---

[1] نعوم تشومسكي، آفاق جديدة في دراسة اللغة والذهن، تر: حمزة بن قبلان المزيني، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2005، القاهرة، ص 82

[2] حسام البهنساوي، نظرية النحو الكلي والتراكيب اللغوية العربية (دراسات تطبيقية) مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، 2004، ، ص 19

[3] نعوم تشومسكي، آفاق جديدة في دراسة اللغة والذهن، ص 85

[1] ينظر: نعوم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، تر: محمد فتيح، دار الفكر العربي، ط1 ، 1993، القاهرة، ص 52.

[2] المرجع نفسه، ص 53

[3] نعوم تشومكسي، اللغة ومشكلات المعرفة، محاضرات ماناجوا، تر: حمزة بن قبلان المزيني، دار توبقال، ط1، 1990، الدار البيضاء، ص 101

وهذا النظام الثابت هو " النحو الكلي". ويرى تشومسكي أن هذا النظام مشترك بين سائر البشر لأنه مكوّن فطري، وهو أساسي لاكتساب أية لغة وهو يتكون من عدة مبادئ تجعل لغات العالم تتشابه كما يتكون من عدة متغيرات تجعلها تتباين تباينا طفيفا، ولذلك لاكتساب - حسب رأيه - لغة معينة يتوجب علينا أن "نضع المتغيرات في أوضاع مسموح بها ونبين خصائص التغيرات اللغوية التي تتبع من وضع هذه المتغيرات. فبوضعنا لهذه المتغيرات بطريقة ما نشتق خصائص اللغة الهنغارية، وبوضعنا لها بطريقة أخرى نشتق خصائص لغة الإسكيمو"[1]، وبوضعنا لها بطريقة مغايرة نشتق خصائص العربية، وكلما اختلفت طرائق وضع المتغيرات، يختلف نوع اللغة التي نتحصل عليها، وهكذا.

ولذا فالطفل" يملك بالفطرة تنظيما إدراكيا، يمكن تسميته بالحالة الأولية للطفل، حيث يمر الطفل بتتابع حالات تتمثل فيها البنى الإدراكية وفيما يتعلق باللغة تحصل تغيرات سريعة نسبة إلى الحالة الأولية، خلال المراحل الباكرة من الطفولة، وبعدها تكتمل حالة عقلية صلبة وثابتة، تتعرض فيما بعد لتغيرات طفيفة، وبالإمكان دائما اعتبار هذه الحالة الصلبة على أنها حالة نهائية للعقل، وأن الحالة الأولية الخاصة بالجنس البشري (الإنساني) والسابقة للخبرة، الحالة الأولية هذه ضرورية للتوصل إلى الحالات الثابتة (امتلاك اللغة)، وبالإمكان اعتبار الحالة الأولية دالة تُسقط الخبرة على الحالة الثابتة أو النهائية، وهذه الدالة التي تميز الحالة الأولية، بالإمكان تصورها كنظرية لاكتساب اللغة عند الإنسان" [2]

تتمثل الملكة اللغوية في ما يسميه تشومسكي بالحالة الأولية « an initial state » التي يرمز لها بـ s_0 ، وهي هبة يولد الإنسان بها، سابقة للتجربة الحسية أو للمادة اللغوية التي تقدمها الأسرة والمجتمع للطفل عبر مراحل اكتسابه للغته الأم. وعندما تقدم البيئة اللغوية سواء أكانت أسرة أو مدرسة أو مجتمعا نماذج لغوية للأطفال فهي تقدم لهم "متغيرات النحو الكلي" التي بتفاعلها مع المَلَكة اللسانية تنتج المعرفة اللغوية أو اللغة المعينة كالفرنسية والعربية والإنجليزية على سبيل المثال. يُفهم من هذا الحديث أن الملكة اللغوية هي سمة بيولوجية أحيائية مثلها مثل السمات الفطرية الأخرى كالنمو والأكل والمشي والوقوف على قدمين، أما المعرفة اللغوية فهي شيء يكتسبه الطفل عبر مراحل نموه ذهنيا وجسديا وهي تتأثر بالعوامل البيئية، فالطفل ينبغي عليه أن ينشأ في بيئة لغوية سليمة كي تنمو وتتطور معرفته ولكي يتعرف على محيطه أيضا. وعندما تصل المعرفة اللغوية إلى المرحلة الثانية أو المستقرة أو الناضجة تتيح هذه المعرفة للمرء قدرة ضمنية على إنتاج وتفّهم عدد لا نهائي من الجمل، كما تتيح له الاندماج في مجتمعه وبيئته.

وهنا يختلف ابن خلدون مع تشومسكي، فابن خلدون يرى أن "الملكة اللسانية" هي المعرفة المُكتسبة التي تتيح للمتكلم استخدام لغة ما بينما يراها تشومسكي هي المسؤولة عن اكتساب تلك المعرفة، أي أنها المسؤول عن اكتساب لغة ما.

لا شك أن الإنسان يولد مزودا (equipped with) بجوانب لغوية مفطور عليها بيولوجيا، ولكن هذه الجوانب "تختلف كثيرا عن تلك التي قصدها تشومسكي، فتشومسكي يقصد بالفطرية وجود "قدرات نحوية " مشتركة بين البشر، وهو ما لم يثبت حتى الآن على النحو الذي نراه في تضاعف هذا البحث، أما الفطرية هنا فهي ليست قدرات ولكنها عمليات processes يمكن إثبات وجودها أو عدم وجودها معمليا" [1]

ممّا تقدم نخلص إلى أنّ ابن خلدون لم يتجاوز بفكره عصره وحسب، بل إنه قد فاق فهما وبراعة وتفسيرا لماهية الملكة اللسانية لسانيّ العصر الحديث أيضا.

قائمة المصادر والمراجع:

1- ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، 1992، المجلد العاشر، بيروت (لبنان)

[1] المرجع السابق، ص 101

[2] المرجع نفسه، ص 67

[1] جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي، مناهجه ونظرياته وقضاياه، مؤسسة الثقافة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الجزء الأول، الإسكندرية، ص 9

2- الجوهري (أبو نصر إسماعيل) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين ، الطبعة 4، 1990 م، المجلد 4، بيروت (لبنان).
3- قاموس المعاني، مادة (مَلَكة)، من: http://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/ .تاريخ السحب: 7- 1- 2017.
4- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة، تح: عبد الله محمد الدرويش، ط1، دار يعرب، 2004، ج 2، دمشق.
5- ميشال زكريا، الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون (دارسة ألسنية)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1986، بيروت.
6- محمد عيد، الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون، عالم الكتب، 1979، القاهرة.
7- مسعودة خلاف شكور، إسهامات ابن خلدون وآراؤه النظرية في تعليمية اللغة، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، ب/ قسم الآداب والفلسفة. العدد 10- جوان، 2003.
8- الرازي (فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين)، المحصول في علم أصول الفقه، تح: طه جابر فياض العلواني، مطبوعات الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، ج 2، 1400هـ، السعودية.
9- باسم يونس البديرات، الفكر اللغوي عند ابن خلدون في ضوء علم اللغة المعاصرة، إشراف الأستاذ الدكتور: عبد القادر مرعي خليل، رسالة دكتوراه في الدراسات اللغوية، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، 2007، الأردن.
10- نعوم تشومسكي، آفاق جديدة في دراسة اللغة والذهن، تر: حمزة بن قبلان المزيني، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2005، القاهرة.
11- حسام البهنساوي، نظرية النحو الكلي والتراكيب اللغوية العربية (دراسات تطبيقية) مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، 2004، القاهرة
12- نعوم تشومكسي، المعرفة اللغوية، طبيعتها وأصولها واستخدامها، تر: محمد فتيح، دار الفكر العربي، ط1 ، 1993، القاهرة
13- نعوم تشومكسي، اللغة ومشكلات المعرفة، محاضرات ماناجوا، تر: حمزة بن قبلان المزيني، دار توبقال، ط1، 1990، الدار البيضاء.
14- نوعم تشومسكي، اللغة والمسؤولية، تر: حسام البهنساوي، مكتبة زهراء الشرق، ط2 (جديدة ومنقحة)، 2005، القاهرة.
15- جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي، مناهجه ونظرياته وقضاياه، مؤسسة الثقافة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الجزء الأول، الإسكندرية.
16- محمد طنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف، ط2، القاهرة.
17- ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج1.